الشيخ جلال الحنفي

كلام على الأملاء العربي

أو

بحث مفصّل في رسم القلم القرآنيّ

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م



هذه عشر حلقات أسبوعيَّة نشرتها لي جريدة الثورة الغراء خلال عام ١٩٨٧ . . . وكـان قد وقع اليَّ الطَّلب في كتابتها من قبل الأخ الأديب الألمعيّ الأستاذ حميد سعيد رئيس تحرير الثوَّرة ورئيس مجلس ادارتها . . فكان له الفضل في حملي على المضيّ في هذه الدّراسة التي تصلح أن تعدَّ فصلاً من فصول «إعادة كتابة التأريخ» ولعليّ خرجت منها بما عساه يغني في هذا الباب بعض الغَناء . . وقد استأذنت رئاسة تحرير الجريدة باستلالها وطبعها في كرّاس مستقلّ فأذنت بذلك متفضلة بكتابها ٩/١/١١ في ٢/١/١٩٨٨ وتمنت موافقة دائرة الاعلام الداخلي على طبعه باجازتها المرقمة ٢٩ والمؤرخة ٩/١/١٩٨٨ فنسأل الله التوفيق والتيسير . .

جلال

جامع الخلفاء / بغداد   الشيخ جلال الحنفي

بين يدي الكتاب ..

قال الفقيه اللغوي الدكتور ابراهيم السّامرائي

قرأت هذه الاضافات الموجزة في لفظها الوافية في مضامينها للاستاذ الألمعي الشيخ جلال الحنفي فاستمتعت كثيراً وأفدت فوائد جمة. ولو ان الشيخ قد عاد الى هذه الفوائد فشرح منها واضاف الى ايجازها لكان له منها كتاب اي كتاب.

هذه الاضافات ربما تخولني ان أقول انها مشروع أول لعمل عظيم يتصل بتاريخ العربية ورسم موادها القديمة. لقد كان المصنف الجليل واضح النظرة دَقيقها، عرف من تاريخ العربية صفحات مشرقة. ويتجلى وضوح النظرة في الافادة من الشذرات المتناثرة في تاريخنا القديم. وكأنه عاد الى هذه الشذرات مستنطقاً فأبعد عنها ما استقر في اذهان الباحثين من خطل في الرأي في خلوصهم الى ان عصور ماقبل الاسلام عصور بداوة وتخلّف.

ان وسم هذه العصور «بالجاهلية» هو من باب ما استعاره الدارسون خطأً من كلمة الجاهلية التي وردت في لغة التنزيل. ان «الجاهلية» في لغة التنزيل تشير الى ماكان عليه العرب في اعتقاداتهم الوثنية المتخلفة التي جاء الاسلام لالغائها والسير بالعرب الى دين الله ملة أبينا ابراهيم - صلوات الله عليه -. وقد ورد في الكتاب الكريم ان دين ابراهيم لم يكن اليهودية ولا النصرانية.

قلت: ان موجز أخي وصديقي الشيخ جلال مظنة لفوائد جمة تتصل بالحرف العربي ورسمه، وما كان من ذلك في خط المصحف وانك لواجدٌ فيه اشارات صوتية تومىء الى فهم دقيق لطبيعة الأصوات، وان هذه

الاصوات العربية القديمة فرضت على المجود المتقن اتقان التلاوة يعينه عليها رسم للحرف القرآني أبدع فيه أهل العلم.

وإني اذ أثبت هذه الكلمات بين يدي هذه الفوائد السنية لآمل أن أكون أنا وصاحبي في عدة المصطفين الأخيار الذين حظوا بسعادة الدارين، والله الموفق لما يختاره ويرضاه.

ابراهيم السامرائي

صنعاء في ٥ شوال

١٤٠٨

قال الشيخ جلال الحنفي:

اللغة العربية احدى اللغات التي تعرف بأنها ذات عرق قديم في العالم . . . وقد نشأت بنشوء العرب وظهرت بظهورهم على مسرح التاريخ كما ان ظهور العربية في الجاهلية .. وهي مكتملة الاطار والظلال والصورة ـ في لهجة قريش خاصة ـ يدل على ان عهدها بالنشوء قديم . .

ومما يدلل على قدمها تأريخياً ان اللغة اليونانية اخذت منها ألفاظاً غير قليلة فقد اورد العلامة الكرملي بعض هذه الالفاظ في معجمه المساعد (١/ ٤٦) . . . وهو يرى ان اليونانية كانت تأخذ من العربيّة ألفاظاً فتعود العربية بعد حين الى استرجاعها ويعتقد الكرملي ان جميع الثنائيات في اليونانية عربية العرق والاصل . . وكذلك اخذت الفارسية القديمة مااخذت من اللغة العربية، على مااورد الكرملي في مساعده (١/ ٤٦) اذ قال: «ولما كانت جزيرة العرب متصلة بالعراق منذ اقدم الازمنة في التأريخ دخل كثير من كلام العرب في كلام اهل فارس».

ومن الثابت تاريخياً أنّ اللغة المصريّة القديمة تأثّرت باللغة العربيَّة تأثراً كبيرا، فلقد قال الدكتور جواد علي في كتابه «تاريخ العرب قبل الاسلام». (٧/ ٢٦) ما نصه: «حدثنا هيرودتس ان الاقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الاحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية» . .

وقال الدكتور احمد سوسة في كتابه «العرب واليهود في التأريخ» (ص ٧١): «اكّد عدد من مشاهير علماء الآثار أنّ الهجرات من جزيرة العرب لم تقتصر على سورية وفلسطين ولبنان والعراق بل تعدّتها الى مصر ايضا حيث يعتقد ان جماعات نزحت من جزيرة العرب الى وادي النيل واستقرت فيه في حدود الالف الرابعة قبل الميلاد . . . كما يؤكد هؤلاء ان

السّـاميّين عمَّمـوا في مصر لغتهم وصبغوها بصبغتهم كما هو ظاهر من النّقوش المصريّة القديمة». .

وأشار الاستاذ محمد علي كمال الدين في كتابه «تيسير العربية» الى قناعة غير واحد من الباحثين الأجانب بأنَّ العربيّة موغلة في القدم، وانها بالغـة في الـرقي درجة عالية، وان الجزيرة العربية كانت موطن حضارة متقدمة اثرت عليها احداث الطبيعة فتبدلت فيها معالم هذه الحضارة. . .

فلابد اذن ان يكون من صميم هذا التحرك الحضاري ـ المنوه به ـ وجود قسط كبير من العلم بالقراءة والكتابة، ووجود قواعد لذلك تستجيب للتعلم والتعليم، وان هذا وما اليه ليعدّ من المعلومات البديهية، وان لم يترك لنا الزمن شواهد خطية مكتوبة.

ومـا من شك في ان الجـذر الاول للعـربية انمـا نبت في جزيرة العرب. . . وبخروجهم بهجراتهم الجماعية الى الانحاء الشمالية خرجت معهم لغتهم التي اثرت في اللغات المحلية الغابرة. . .

وان تشابه لغات اخرى بالعربية كالحبشيّة والعبريّة والآراميّة يدلّ على تقاربٍ في اصول هذه اللغات المسمّاة في الاصطلاح الحديث بالسّاميّة وهذا ما يؤكّد قِدَمَ العربيَّة التي لا يغلو قائلٌ في قوله إنّها ـ أي العربيَّة ـ أُمُّ هذه المجموعة من اللغات. . .

فانه يلاحظ في العبرية والآرامية وجود حروف غير موجودة في العربية وذاك ان العربية رفضتها بعد ان فصحت ألفاظها وتهذبت حروفها بفعل الارتقاء الاسلوبيّ في التّعابير الشّعريّة والخطابيّة لديهم. . . مما يستدل به على ان العربية اجتازت آماداً طويلة من الزّمن حتى بلغت مرحلتها من التنقيح الشامل والانضباط الصوتي. . . وعلماء اللغة يذكرون ان حروف

العـربية التي عرفت في لهجـات اهلهـا كانت اكثر مما تعدّ به، ولكنها حروف طرحت بفعل عوامل التزكية والتنقيح حتى انحسرت الى لهجات بيئية ضيقة. . .

وبعبـارة اخـرى ان لغة الاعاريب كانت قد مرت اول امرها بمراحل طويلة من التطور اللهجوي بسبب اتساع رقعة الجزيرة وتباعد اطرافها وكثرة بطونها وقبائلها وكون القوم رُحَّلاً بداة. . .

واللغة ابداً ألفاظ يضعها المتكلم تبعاً لمؤثرات كثيرة يرجْع بعضها الى أمور نفسية وانفعالات تتحكم في وضع الكلم وتخيُّر حروفه وتراكيبه. . . وللأجواء والحاجات والاحوال المختلفة اثر ظاهر في تكوين لغات الامم بَلْهَ الثّقافةَ والتَّقدُّمَ الفكري. .

ثم ان العرب كانوا قُبيل الاسلام قد اهتدوا الى توحيد لهجاتهم بفعل ظروف من التلاحم والاحتكاك واغراض التجارة وشؤون العبادة، فكانت حصيلة ذلـك لغـة قريش التي تمثـل فيهـا البيان العربي المجمع عليه والمعترف به من لدن جميع العرب، لان القرآن الكريم حين يذكر بيانه يصفه بالعربية المطلقة، وليس بأنه لغة قوم يخصهم بالذكر دون سواهم من قبائل العرب، وكان الامر عليهم بهذا هيّنا. . . وقد قال الجاحظ في بيانه وتبيينه - ١/٢٩١ - «فاما الخواصّ الخلص فانهم قالوا العرب كلهم شيء واحـد لان الـدار والجزيرة واحدة والاخلاق والشيم واحدة واللغة واحدة وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الاخلاق وفي الاعراق ومن جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التـربـة وطبـاع الهواء والماء فهم في ذلك بذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل والمرعى والراية والصناعة والشهوة».

وقد قال الاستاذ الزيات في «تأريخ الادب العربي» يصف لغة قريش وصنيع العرب في الالتمام عليها والاستدارة حولها ـ قال: «واختاروا لغتهم من افصح اللغات فكانت اعذبها لفظا وابلغها اسلوبا واوسعها مادة، ثم اخذ الشعراء يؤثرونها حين نزل بها القرآن الكريم فأتمَّ لها الذيوع والغلبة»..

وقد كان للاسواق العربيّة الموسميّة ايام الجاهلية دور ظاهر في تقبُّل هذا الامر الحضاري، ومن هاتيك الاسواق سوق عكاظ الذي سمي باسم قرية كان ينعقد فيها قيل انها موغلة في القدم وقد يكون انعقاد السوق فيها موغلاً في القدم كذلك.

★★★

ومن اجل ان تفهم المقاصد اللغوية المنطوقة كان لابُدَّ عند وضعها وتكوينها ان تكون ظاهرة الدلالة على المقاصد المقصودة في التخاطب من تعبير عن حاجات النفوس، وإخبارٍ عن الاحداث الحادثة. وتوضيح ما يراد وما لا يراد والاشارة الى ما مضى وما سيأتي، والترهيب من شر والترغيب في خير الى غير ذلك من المطالب التي تدور عليها رحى الكلام بين المتكلمين...

ومن هنا وجدت اللغات والالسنة قائمة على جوامع اساسية في هذا الامر، فلابد من مجموعة يقال لها الضمائر للتميز بين المتكلم والمخاطب، ومن يدور الحديث عليه او عليها فرداً وجماعة... ولابدّ من مجموعة يقال لها ادوات الاشارة وادوات الاستفهام ونحو ذلك مما يبدأ به الكلام او ينتهي به فيكون مفهوماً لسامعه ومدركةً ما هيَّته بالقواعد المقعدة في لسانيات الناس..

ويعني هذا ان اللغة ـ اية لغة كانت ـ **قائمة على اصول تضمن لتلك** اللغة ان تكون طَيِّعَةً للتّعلم والتّعليم والتّفاهم الى **أبعد مجالات التّفاهم** وغاياته. . . وان يعرف الاحفاد ماعناه الاجداد **في موروثهم الادبي وغيره** مما ينقل اليهم ويقص عليهم. .

ولابد ان يكون للاطفال ولصغار السن من حصة محدودة **المقدار من** ألفاظ التخاطب ليتم بذلك افهامهم ما يراد افهامهم به من كلام في سائر الظروف المتصلة بتربيتهم البيتية الاولى. .

فاللغة اذن قانون جبلِّيّ التكوين، تعاونت عليه الغريزة والثّقافة المتيسّرة ومطالب الالتقاء الاجتماعي على اي صعيد كان ذلك الالتقاء. . .

ونشـأ بذلـك ـ فكـان مانشـأ جزءاً من اللغـة ـ التّمييز بين الأصوات المسمـوعة فصارت الأذن البشرية تميّز ماتسمع من تلك الأصوات وفق ماعلمته من دلالاتها الحَدِّيَّة، ثمّ صار لها من تطوّر الأصوات ماجُعِلَ من وسائل الغناء والتطريب، فميز صوت عن صوت، وفصل زجر عن دعاء، حتى تم لكل امة اطارها الكلامي بالقدر الكافي لها. . .

ثم نشأت المجازات وجاءت المبالغات وظهرت الاساليب المتعددة في التعبير الذي يوجزه من يوجز ويطنب فيه من يطنب، وكان الشعر وكانت فنونه وموازينه الى غير ذلك من شُعَبِ اللسانيات الكثيرة. . .

وكان هذا في البيئات المتساكنة التي تلتقي على ساحة الحياة **اليومية** باستمرار في البيت والسّوق والطّريق وفي حالات الاصطحاب **والمعاداة** والتعارف والتناكر وما الى ذلك مما تتقارب به اسباب الالتقاء **او تتباعد. . .** وشؤون الحياة وهمومها اجدر ان تحقق الكثير من ذلك. . .

وكان من دواعي إِثبات شخصيَّة السلطة ذات **الإمرة الآمرة في كل وسط**

اجتماعي، وكذلك من دواعي اثبات حق يستحقه مستحقه، وتوثيق امور يخشى عليهـا الضياع والنسيان وتكون ذات اثر في التذكير والدلالة.. وكذلك ايصال المعلومات الى أناسٍ يبعد بهم المكان والزمان على الجهة ذات الحـاجـة الى مخاطبتهم... كل اولئك دفع الكائن البشري الى اتخـاذ اشـارات ومعـالم يستدلّ بها على الكلام بغير صَوت مسموع اذ لامجال لايصال الصّوت المسموع الى أبعادٍ شاسعة أو الى جهات يراد اعلامها بأمرٍ لا شأن لغيرها به..

وهكـذا نشأت الرموز المكتوبة فالصور فالحروف، وثبتت الاصوات بالاشـارات فصـار كل مقول ممكناً ان تنعقد عليه الحروف فيظلّ مقولاً مقروءاً ابد الآباد وعلى شتّى مسافات الأبعاد.. واختارت كلّ أمَّة نمطاً شاءتـه لكتاباتها كالخطّ المسماري والخطّ الصّيني والخطّ الهيروغليفي وغير ذلك...

ولم تكن العـرب بدعاً من الأمم التي كتبت ورقمت؛ وكانت العرب تتعـامـل بالنقود المثبتة عليها قيمها ومقاديرها مما يصل اليها من الدول المعروفـة، وكـانت عبـر اسفـارهـا تسمـع بالكتب المكتوبة والصكوك والوثائق، وتعرف ان هناك اسفاراً يقرأ فيها ذوو الديانات القديمة، وتعرف أنّ هناك نقوشاً وخطوطاً فيها مقولات ذوي اللغات، فليس من المعقول ان لا تحتاج هذه الأمة ذات العرق الموغل في التأريخ الى التّخاطب البعيد بالكتابة، أو انها لم تظهر لديها الحاجة الى الكتابة في تجارة أو ادارة..

انّ أمّةً كان الشّعر من أقدم جذورها الحضاريّة ليس ممّا يصدَّق أنّها لم تكن ذات خطٍ وقلم قديمين قِدَمَ لغتها القديمة..

وكان الجانب الجمالي والابداعي في العربية قاطع الدلالة على قدم

هذه اللغة اذ لا يعقل ان تنشأ لدى شعراء العرب **هذه المجموعة الرائعة** من الأوزان الشّعريّة دون مرور دهر بعيد على **ذلك. . . وهو ما لا وجود له** كُلّاً أو بعضاً في اللغات التي عاصرت لغتهم. .

واذا كانت لا تزال هناك قبائل تعيش في عصرنا **الحاضر لا تعرف** القراءة والكتابة فانها قبائل تعيش في مجاهل العالم لا يصل **اليها احد ولا تصل** الى احد، وليس امرها كأمر العرب ذوي **الصلات الكثيرة بالعالم. .**

وليست الشعوب المتخلفة عن الركب الحضاري في بعض انحاء العالم الحديث محلاً للقياس بالعرب في دهرهم القديم فانا ننفي ان يكونوا قد استغنوا عن الحاجة الى الكتابة بحيث لم تظهر فيهم الاّ في وقتٍ متأخر غير متقدم. .

وما يشير اليه بعض الباحثين من أنَّ نقوشاً وكتاباتٍ وُجدت على بعض الصّخور فيها حروفٌ عربيّة كانت محلَّ تمحيص الدّارسين والمنقّبين، لا يمكن ان يكون كلَّ شيءٍ في هذا المجال. . . .

انّ النّقوش المكتشفة في آمادٍ متباعدة في «النّمارة» وغيرها ـ ان وجدت وان لم توجد ـ لا احسبها تقدم او تؤخر في حكاية معرفة العرب بالكتابة، ولا احسبها تقف في وجه الاستنتاج المنطقي الذي يستفاد منه ان العرب عرفت الحرفَ وقواعدَ استعماله على أدقّ وجهٍ وأقوم خطّة من دون أن تتلقى ذلك من النبط وغير النبط. . .

ان العرب عرفوا أقواماً يقرأون في كتب مكتوبة لديهم، وفي هذا مدعاة للانتباه والتحسس اللذين تفرضهما ظروف الالتقاء البشري. . . لذا نؤكد انَّ غياب ذلك عنّا اليوم غير ذي دلالةٍ على أنَّ شيئاً منه لم يكن كائناً في التاريخ. . .

واذا كان عامّة النّاس من العرب على كثرةٍ أو قلةٍ لا يكتبون فأين ذهب اذن خاصتهم وتجارهم ممن تلزمهم حاجاتهم بالكتابة؟ واين ذهب ملوكهم - وهم كانت لهم ملوك - وللملوك دواوين تدون فيها الاوامر والاحكام؟ فكيف يكون العرب بدعاً من الأمم التي عاصرتهم وعاصروها . .

واذا كان سكان البوادي وغيرهم قد حملتهم ظروف الحياة غير المستقرة على العزوف عن القراءة والكتابة فليس من الضّروري وقوع ذلك على سائر النّاس من سكّان المدن والمراكز الحضاريّة فيها.

فهناك مايدلّ على أنَّ العرب كتبت في قديم الزّمان ثمّ ضاع ذلك . . . وقد قال احمد بن فارس احد علماء اللغة في القرن الرابع الهجري «ان قواعد العروض والنحو كانت معروفة ايام الجاهلية ثم نسيتها العرب بمرور الأيام وطغى عليها السَّماع وصارت العرب تتكلم على سجيّتها» ولاغرابة في هذا فالخطّ الهيروغليفي صار مجهولاً على المصريين المتأخرين، . . وقال محمد عزّة دَرْوَزة (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) من «عصر النّبيّ» - طبع عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م بدمشق -: وعلى هذا كله أيضاً نقرّر أن ماذكره بعض المؤلفين القديمين ونقله عنهم بعض المؤلفين الحديثين من أنه جاء الاسلام ولم يكن يكتب ويقرأ في مكة إلا سبعة عشر شخصاً، وأنه لم يكن في جميع اليمن من يكتب ويقرأ، وأن الحروف العربية لم تخترع إلا قبيل البعثة النبويّة، وأن الأفراد القلائل الذين تعلموها من أهل مكة لم يتعلموها إلا في هذا الظرف، وأن وسائل الكتابة في عصر النبيّ (ص) وبيئته لم تكن تعدو لحاء شجر وأكتاف عظام وقطع جلد، ورقائق حجارة الخ انما هو قولٌ جزاف لايثبت أمام التمحيص والتدبر، وقد نقضته الحقائق العلمية الراهنة.

***

كان في العرب أناسٌ يكتبون، وكان فيهم أناسٌ **لا يكتبون. . وإذ عُرِفَ** في قليل منهم ـ او كثير ـ ما عرف من الذكاء وقوة **الذاكرة وملكة الحفظ** النّادرة نشأ بمقتضى ذلك في هؤلاء شيءٌ من **الاعتداد النّفسيّ بقدرة** الذّهن على استيعاب ما يصل الى الأذن من شِعْرٍ وغير شِعْرٍ دون الحاجة الى الكتابة. ولكنّ هذا لا يحول ان يقال ان فيهم من ثبتت حاجته الى الكتابة فكتب. . وكذلك كان من شأن اناس فيهم بلغ بهم الاعتداد بالقدرة على التهام المعلومات واختزانها ان ألقوا على من يكتب تهمة التحريف والتصحيف اذ جعلوه ضعيف الذاكرة لا يطمئن لغير رقاع يكتب فيها ما يكتب. . .

فكأنّهم اشتقوا كلمة التحريف من استعمال الحروف في الكتابة، وكلمة التصحيف من استعمال الصحف والكتابة فيها. . . ولكن **مثل هذه** المقولات لا دلالة فيها على الجهل بالكتابة على المدى البعيد لدى العرب قبل الاسلام، بل انّها لتدلّ على وجود من يكتب في الصحف فيثير بما يفعل مثل تلك الاتّهامات والرّجوم. .

وقد يكون من اسباب ذيوع الأُمّيَّة في الجزيرة أنَّ تعلّم القراءة والكتابة امر يتطلب بذل المال الكثير يضاف الى ذلك ندرة الادوات التي **يكتب بها** وعليها، ومن هنا كان عدد متعلميهم قليلاً فيهم. . . وقد يكون ـ **كذلك** ـ من اسباب هذه النّدرة في الكُتّاب عدم ظهور الحاجة **في البيئات البدويّة** للتعلّم اذ ليست هناك ظروفٌ تحملهم على القراءة **ولا كتبٌ ولا صحفٌ** يضاف الى هذا انهم قوم فصحاء بالفطرة، وشعراء **بالغريزة، وانهم** حفظة اخبار، ودراة بالانساب، وامناء على **الاموال وحقوق الناس. .**

وحين نزل القرآن الكريم كان غالب الاعتماد في حفظه على الاستظهار، اذ لم يكن يقرأ القرآن في الصلاة من ورقة مكتوبٍ فيها مايقرأ منه فهي ـ أي الصلاة ـ ليست كشأن صلوات اهل الكتاب الذين تجري صلاتهم بتلاوة الكتب المكتوبة التي لم يفرض على أتباعها استظهارها ولادُعوا الى مثل ذلك كما دعي المسلمون الى حفظ القرآن حفظاً مقروناً بالتَّحذير من النّسيان...

ولم تكن دعوة القرآن اوائل معتنقي الدين الحنيف من العرب الى استظهاره صعبةً عليهم، فانّ ذلك من هيِّنات المطالب التي تنسجم واستعداداتهم الفطرية التي عرفت فيهم.. ولكن الشريعة الاسلامية استفادت من وجود قوانين ثابتة للكتابة في ذات البيئة يعرفها أناسٌ في جمهرة الذين اعتنقوا الاسلام ـ وفي الذين لم يعتنقوه بعد ـ اي ان الكتابة كانت تجري وفق قواعد إملائيّة متّفقٍ عليها لدى غير الأُمِّيِّين منهم... وهي ـ حتماً ـ قواعد متوارثة نقلها المتعلمون من المعلمين، وحفظها الاحفاد عن الاجداد... ولا تقفُ قلَّة وجود الكُتّاب ـ ان عددناهم قلّة ـ حائلاً دون هذه الحقيقة الظاهرة للعيان والمؤكدة باكثر من مؤكد..

لقد كان من مهمّات هذه الشَّريعة السَّمحة الكريمة أنْ أغرت اتباعها بتعلم رسم الحروف على يَدِ مَنْ يملك معرفتها والقدرة على تعليمها والرغبة في ذلك؛ بل اصدرت اوامر قاطعة دعت بها الى اعتماد الكتابة في تثبيت بعض الحقوق ومنها حقوق الديون بين المتداينين «يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدَيْنٍ الى أجلٍ مسمّى فاكتبوه وليكتبْ بينكم كاتبٌ بالعدل ولا يَأْبَ كاتبٌ أن يكْتُبَ كما علَّمه الله فليكتُبْ» وجاء في تمام آية الدين «ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله»..

على ان القادرين على القراءة والكتابة كان لهم وجود في البيئة وصوت مرفوع في النقاش وابداء الرأي في قضايا الدين والشريعة والجدال العريض على ضوء ما يملكون من ملكة الكتابة والقراءة. . . ففي القرآن الكريم «أَنْ تقولوا إنّما أُنزل الكتابُ على طائفتين مِنْ قَبْلنا وإنْ كُنّا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لَكُنّا أهدى منهم. . » فهـذا نقاشٌ يناقش به قومٌ يعرفون القراءةِ والكتابة، اذ لا يقول مثلَه مَنْ غلبتهم الأُمِّيَّة فلم يعرفوا رسم الحروف. .

ومثل ذلك في الخطابات القرآنيّة النّص القرآنيّ الكريم «ووُضِعَ الكتاب فترى المجرمين مُشْفِقينَ ممّا فيه ويقولون يا وَيْلتَنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة الاّ أحصاها. . . » فأنهُّ واضح الدّلالة على أنّه جارٍ في مخاطبة رجال من الملمّين بالقراءة والكتابة، وماهو في مخاطبة الأُمّيّين ممن لايعلمون الكتاب. . . ومثل ذلك: «فمن أُوتي كتابَه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم» ومثل ذلك مما يدل على ان غالب الذين جادلوا النبي كانوا غير أُميّين قوله تعالى: «ولو نَزَّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا إلاّ سحرٌ مبين» ومثل ذلك «ولن نؤمن لِرُقيِّكَ حتى تُنزّل علينا كتاباً نقرؤه». .

يبدو من هذه النصوص ان حملة لواء الجدل اول نأنأة الاسلام كان معظمهم من الفئة الملمة بالقراءة والكتابة. .

وكان موقف الرسول التعليمي الرائع في قضية بعض اسرى بدر الكبرى انه اشترط على رجال فيهم ان يعلّموا عشرة صبيان من اهل المدينة القراءة والكتابة ليكون ذلك فدية يفتدون بها انفسهم فيطلق سراحهم. . .

وهذا يعني أنَّ هناك قواعد لرسم القلم العربي يُلمّ بها العارفون بالقراءة

والكتابة ولابدّ أن تكون هذه القواعد متفقاً عليها من حيث انها قد عُرفت في مجالات الاستعمال والتوثيق في سائر المطالب التي أَلِفَ فيها القوم الكتابة، اذ لم يظهر في هذا الظرف ما يشير الى وجود مدارس في الخطّ العربي، وإلاّ لجاءت الاشارة الى ذلك عند اِلزام الأسرى بتعليم اولئك الصِّبيان. . . وكيف يتمّ تعليم أولئك الصِّبيان الكتابةَ بأُسلوبٍ يقع فيه خلافٌ وتفاوتٌ في نظام الكتابة فلا بدَّ اذنْ ان يكون رسم القَلَم لدى القوم أيامذاك متفقاً عليه لدى الطبقة التي عُرفت بأنها كانت تُحْسن الكتابة. .

ومن فرط حُفول القرآن الكريم بأمر الكتابة والعلم والثقافة المتكاملة جاء التنويه بشرف الحرف العربي والحفول بمكانته في صدر اكثر من سورة قرآنية كريمة من نحو سورة (ق) وسورة (ص) وسورة (طه) وغيرها من سور التنزيل العزيز لفتاً لأنظار الفئات الأُمّيَّة الى أهمّيّة القراءة والكتابة التي تنطلق من النّقطة الأولى التي هي معرفة الحروف والإلمام بطريقة كتابتها. . .

***

انّ الأُمّيَّة في العالم القديم كانت شاملة كلّ العالم ولم تكن جزيرة العرب وحدها قد ضربت فيها الأُمّيَّة أطنابها على ما يُظنّ ظنّاً دون استيقان.

وكان الكهنة في سائر الشعوب هم الذين يقرأون ويكتبون دون عامة النّاس الذين كان الملمّون فيهم بالقراءة والكتابة جدَّ قليلين الاّ في الفترات التي كانت تنعم بحضارات متقدمة شاملة يكون فيها ذوو الحاجة الى الاعمال الكتابية كثيرين وفي طليعتهم العلماء والفلاسفة وطلاب الفنون وسائر الثقافات.

واذا نظرنا الى بعض الخطوط القديمة في الصين نجدها تكاد تميد من ثقل ما عليها من رموز متشابكة تضيع العين فيها، مما يوحي بأنّ تعقيدها كان مقصوداً لتظلّ محصورةً في إطار ممتهنيها المعدودين ولتبقى الأمّيّة هي السائدة في المجتمع.

على ان الاصل في اختراع الكتابة لدى الانسان القديم كان ظاهر البساطة فانّ حركات الايماء والاشارة من نحو أنْ تدعو انساناً باشارة من يدك او ان تصرفه عنك او تأمره بمغادرة المكان باشارة اخرى، مما هو مفهوم للنابه والساذج من الناس.

ونحن حين نكلّم المصابين بالخرس نستعين بالاشارات اليدويّة وغيرها على الهواء أو على الارض فنبلغ بذلك ما نريد من إفهام من نخاطب منهم.

وانت اذا وصفت من طريق الاشارة رجلاً قصيراً أو صبيّاً صغيراً، كانت اشارتك هذه غير اشارتك عند وصفك شخصاً طويلاً مفرطاً في الطّول..

وهكذا انتقل الامر من الاشارة على الهواء الى الاشارة على الارض اوالجدار او الحجارة وغير ذلك، فصارت اشارة ثابتة بعد أن كانت اشارة مؤقتة، وصارت كذلك اشارةً اصطلاحية مرسومة متعارفا عليها بعد أن كانت مرتجلة لغاية محدودة.. فانتقلت من الخصوص الى العموم اي انها بعد أن كانت مصطلحاً بين اثنين صارت لغة تخاطبٍ يتخاطب بها الناس...

وفي اللغة الصينية على فرط تعقدها وغموضها ماتزال هناك رموز بسيطة يتّضح المراد منها لأوّل نظرةٍ تُلقى عليها ككتابتهم لكلمة رجل بشكلٍ يشبه رقم الثمانية في الاعداد العربية اشارة الى انه كائن ذو رجلين يمشي

عنيهما، فاذا رسموا ثلاثة من هذا الشكل على هيئة مثلثة دل ذلك على جماعة من النّاس. واذا رسموا مُرَبَّعاً دلّ ذلك على الفَم، فانْ رسموا مربعاً فيه ما يشبه رقم الثمانية دلّ ذلك على كلمة السّجن. وكلمة النّار عندهم ترسم برمز يشير الى عيدانٍ تحترق، وكلمة الماء تكتب برمز يمثل صورة الماء يموّجه النّسيم الجاري على نهرٍ أو ساقية وكلمة سَمَكةٍ ترسم على صورة سمكـة. وهكـذا كانت لغة الايماء والاشارة باليد وبغير اليد هي المنبّه الاول الى استعمال الكتابة.. والكتابة في الحقيقة مسألة غريزيَّة قبل أن تكـون حضـاريَّة لأنَّهـا من ابعـاض كلام الناس، ونعني بذلك حاجتهم الى استعمال اليد وأعضاءٍ أخرى من الجسم في التَّوكيد على مطالبَ لا يكفي اللسان وحده في تبيانها...

وكـان الاعتماد على تصوير الصور من اوائل مراحل الكتابة... وما النّقـوش البـدائيّة في الكهوف إلّا كتاباتٌ قُصِدَ بها معنىً ما... وتفنّن العقل البشري القديم في صنع هذه الرّموز التي كانت بدائيَّة ساذجة أول أمرها ثم طرأ عليها التعقيد بعد ذلك..

ان استعمال الاشارة مازال كائنا في حاجة المتكلم الى التركيز على معنى يريد اقراره في النفوس. وقد وجدنا في الحديث النبوي ان النبي صلى الله عليه وسلم خَطَّ على الارض خطّاً وقال هذا هو الانسان وخطَّ خطّاً آخر بعيداً عنه وقال هذا أجله ثم خطَّ آخر أبعد من الثاني وقال هذا أمله، مشيراً بذلـك الى أنَّ الأجـل يحـول دون تحقيق كثيرٍ من أمـاني النّاس.. فهذا شيءٌ من اللغة يعالجه من يكتب، ومن لا يكتب ويفهمه من تشرح له دلالاته..

وقرر علماء اللغة ان الاشارة باليد ونحوها نمط من القول وان لم تكن

الاّ اشارة حركية لأقول معها وكثيراً ما نقرأ في كتب الحديث انه قال هكذا ويراد بذلك تصوير حالة جلوسٍ او طريقة كلام، ومثل هذا ماهو كائن في اللغات العامية الشائعة مما يفهم منه ان الاشارة كلام، وآنها يمكن ان توصف بأنّها كتابة أو أنّها نمطٌ من أنماطها فلا يستبعد أن تكون الكتابات لدى سائر الامم قد اخذت منها او انها بدئت بها. قال الشاعر:

تجمع عيني وعينـها لـغةً مخالف لفظها لمعناها
ذي لغةٌ تسجد اللغات لها ألغزها عاشق وعَمّاها

وقال آخر: «فأيقنت أنَّ الطَّرف قد قال مرحبا»..

ولقد استعانت امم اعجمية كثيرة ـ ممن اعتنق الاسلام ـ بهذه الحروف فكتبت بهـا أَدَبَها وتأريخها وابدعت في رسمها وتفنّنت في نقشها بقدرةٍ متميزة حازت الإعجاب العالمي.

ومن فراغ اشكال الحروف العربيّة وخلوّها من المعالم الصُوَريّة ندرك أنّهـا ابتعدت عن الإشارة البدائيَّة الى رمزٍ يستوعبه الذّهن فيترجمه الى صوت يكـون به الكـلام المسموع كلاماً منظوراً مقروءاً بالهيئات الثابتة لحـروفـه المسماة بالحروف الابجديّة وهي حروف فيها لمتعلمها هدى وبيان.. يستوي في ذلك ان يكون هذا المتعلم من العرب ومن غيرهم..

اما الرسم القرآني ـ اي الخطّ القرآنيّ ـ فلقد تجلتّ البراعة التّامّة في عطائه الفَنّي الرّائع، ولقد تنافس الخطّاطون الكبار في هذه الحلبة الفسيحة المباركة وبذلك ازداد الخطّ العربيّ القديم جمالاً وفتنة وحيويةً وهو لم يكن منذ ظهرت به المصاحف الأولى الاّ ذا جمال وحيوية.

وندرك بذلك ان العرب الاولين تلمسوا في خطهم أنْ يكون ذا جمالٍ ورونقٍ اضافة الى أنّه كان أداة للتَّدوين ووسيلةً من وسائل توثيق ما يجب

توثيقه من المعلومات او الحقوق. . .

ونرى في الشّعر العربيّ عبر العصور ما ينوّه تنويهاً صريحاً بجمال شكل الحرف العربي، ومن ذلك قول أبي نؤاس:

قد كَسَّــر الــشَّــعْــرَ واواتٍ ونَــضَّــدَه
فوق الجبين وردّ الصُّدْغَ بالفاءِ

ولا يمكن أن تكـون هذه الحـروف قد نُقلت من الخطّ العِبْريّ أو الحبشي أو السّرياني، ولا يمكن أن تكون الحروف العربيَّة الجميلة قد وُجدَتْ بغتة. . لأنَّ مثل هذا التّكوين من صنع فنّانين متميّزين بعبقريةٍ عالية نادرة هم من صميم العرب حتماً. .

***

انَّ علامات المُرور الدُّوليّة لا تزال تتكوَّن من لغة الإشارات فالاستدارة المسموح بها والاستدارة غير المسموح بها، كُلٌّ منهما اِشارةٌ لا يشقّ فهمها على النّاس. . .

وما من انسان على وجه الارض لا يعرف كيف ترسم الدائرة والمربع والمثلّث على القرطاس أو على الأرض أو الجدار أو في الهواء. .

ومن عادة سائر الناس في حالات عارضة ان ينكتوا على الارض بعود وغيره ممـا يكـون في ايديهم، او يقـع ذلـك منهم باصابعهم. . وكتابة الاعـداد البـدائية كانت بتكـرار الخـطوط، ولا يزال الامـر كذلك لدى الصينيين في الارقام الثلاثة الاولى. . . وهو كذلك في الارقام الرومانية. . واستعمـال السبح والحصيات في تعداد المعدودات وما يراد تكراره من المـرات امـر معـروف. . . ومثل ذلك استعمال عقود الاعداد بالاصابع تكون على حالاتٍ ذواتِ دلالةٍ على هذه العقود كالاربعين والخمسين. .

والى أيّامٍ قريبـة كانَ السّقـاؤون وباعةُ الشّاي وغيرهم يخطّون على الجـدار خطوطـاً تشير الى عددِ ما جلبوه من قِرَبِ ماءٍ، أو ما باعه باعة الشّاي من أقداحه للشّاربين لاسيّما عندما يكون ذلك لغرض تسجيل الدّيون . . . .

فالكتابة تعبيرٌ عمّا يجول في نفس متكلّمٍ ان يقوله بعيداً عن الصّوت المسمـوع، وهـذا التعبير يعتمد على الاشارات الصورية السهلة الفهم والاستيعاب الذهني . .

وقـد اشـرنا الى انّ التّعقيد في الكتابة استند الى ضرورات تُعدّ من الأسـرار او مايشبههـا ابتغاء اخفاء امور عن غير ذوي العلاقة بموضوع المكاتبة والمراسلة كالحال تماماً لما يكتب بلغة الشّفرة ممّا لا يراد له أن يفهمه من يقع منه في يده شيء . .

على انّه ليس كلُّ ملفوظٍ يتهيّأ للافظهِ أو سامعهِ أن يكتبه، ومن هذا ماهو كثيرٌ في كلام العوامّ اذ ترد على ألسنتهم حروف غير معترفٍ بها في اللغات المكتوبة . . . وأنا أستخلص من هذا أنَّ الكتابة وسيلة لايمكن وصفها بأنّها واسعة الأفق لتثبيت سائر الملفوظات بالخطّ فلابُدَّ أنْ تَفِرَّ من الوقوع في قيده منطوقاتٌ قد تكون كثيرةً وهذا مايقال بعضه او كلّه على أكثر من لغة من لغات البشر . . .

وما احسب العرب في ايام الجاهلية قد خفي عليهم ان المصريين لهم خطوطهم المؤلفـة رموزها من صور حيوانات وهيئات اخرى وان اليونان وسائر أمم تلك العصور لها خطوطها وكتاباتها . . والتّجّار العرب أوغلوا من قديم في آفاق الارض ورأوا من يكتب من كَتَبَة الأمم فعلموا من ذلك الكثير . .

والـذين ذكروا أَنَّ ألْفاظاً من العِبْريَّة قد استعملها العرب ونقلوها الى لغتهم وانهم استعملوا ألفاظاً من الروميّة والحبشيّة والآراميّة، لم يكن في امكانهم أن يقولوا اِنَّ العرب تقبّلوا شيئاً من خطوط هؤلاء الاقوام او نقلوه واقتبسوه. . .

أفلا يدلّ ذلك على أنَّ العرب هم أنفسهم قد وضعوا خطَّهم على النّحو الذي وصل الى عهد البعثة النَّبويَّة؟ فتمَّت به كتابة آي الذِّكر الحكيم على مدى ثلاث وعشرين سنة. . وواصل كتبة العرب ـ ومن تعلم العربية من مسلمة الأعاجم ـ الكتابة بذات الخطّ الدَّهر الطّويل. . .

ان الخطَّ القرآني خطٌّ عرفته العرب قبل نزول القرآن الكريم وان لم تكن لدينا صُحُفٌ مكتوبة وَفْقَ قواعد هذا الخطّ في تلك الآماد الموغلة في القدم ولا يملك شيءٌ من هذا أن ينفي الحقيقة التي ثبتت منطقياً في دلالتها على قدم دراية العرب بالخطّ وقواعده. . ولم يقم من دليلٍ على حاجة الخطّ العربي القديم الى تصحيحٍ سوى ما تَمَّ الالتزام به من تثبيت النقاط والحركات، ولكنَّ صور الحروف ظَلَّت كما هي فلم يكتبوا حرفاً بغير هيئته وشكله الهندسي، يستوي في ذلك من كان جيد الخط ومن كان غير جيده، وانه لرائع كل الروعة ان يوفق الذين وضعوا الخط العربي ورسموا رسومه لأَهَمّ قضيَّة في الخطّ هي قضيّة التّمييز بين صوره في متن الكلمة وفي تضاعيف الجملة، فالطّاء غير العين، والرّاء غير الميم والسّين غير الهاء، والدّال غير اللام، فهي مهارةٌ ظاهرة لاتُنْكَرُ ولو على وجه العناد. . الاما كان من حروف متشابهة الشَّكل ولكنَّها ظاهرة المعاني. .

ان هندسة الخطّ العربيّ من الدّقَّة في الضَّبطِ تلاحظ في حروفٍ تنفكُّ عن حروف، وفي حروف تتعلق بحروف، وتبرز كذلك في تنوع الاشكال

آونةً، وفي تشابك الاشكال آونةً أخرى... وبعضها كذلك يأخذ اتّجاهاً عمودياً، وبعضها يأخذ اتّجاهاً افقيّاً... فالأمر عند البحث عن حقيقة الأمر غيبٌ بعيدٌ لم تكشف لنا عنه كتاباتٌ أثريّةٌ بعد، ولكنّه يومىءُ ايماءاً قاطعاً الى قدم الخط العربي وقدم قواعده التي تستقلّ بشخصيّتها الهندسيّة والاملائيّة عما سواها من خطوط الأمم التي عَرفت الكتابة وكانت لها كتابات قديمة.

ان القرآن الكريم اجتمعت فيه جميع حروف الهجاء فهل حدثنا احد عن حروف ابتكرها الكتبة في الاسلام او بعد الاسلام افلا يدل هذا على وقوف هذا الأمر عند الحدّ الذي تركه الأسلافُ القُدامى من العرب، فكان خير تَركَةٍ للحضارة الاسلاميّة العظيمة..

***

انّ ردَّ ألفاظٍ في العربيّة الى العبريّة والحبشيّة كلفظة «تابوت» مثلاً يدل على تسامحٍ كبير في دراسة اللغة ففيم راحوا يردّون الألفاظ العربيّة الى تلك اللغات دون ان يردوا تلك اللغات الى العربية؟ فهل يرى القوم ان العربية متأخرة وان تلك اللغات متقدمة عليها؟ وما الدليل على ذلك؟.

وهل كانت العرب لا تشهد لأبناءٍ من أبنائها حالة مَوتٍ وتشييع ودفن، حتى اضطُرَّتْ بعد دهرٍ بعيد الى ان تتعلّم دفن الموتى من الأحباش وتعلّمت منهم تشييعهم الى قبورهم فَلَزِمَها ذلك نقلَ كلمة التّابوت عن لغتهم؟

ولقد وجدنا من يتحدَّث على حجاراتٍ في سفوح بعض الجبال بعدَ المسيح او قبله يقولون انهم رأوا الالف تكتب على هيئة حكموا على انها هي الاصل في كتابة هذا الحرف...

تُرى أين الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء وأين الحروف الأخرى؟

وانّه لمن البديهيّاتِ البديهيّةِ أن يكون وضعُ الأحكام مستَنَداً فيه الى جمهرة من الوثائق، وليس الى حجارةٍ واحدة لا يُعلم أكان كاتبها عالماً بالحروف مجيداً نقشها أم انه لم يكن كذلك؟.

وان الحكم اذا اريد سحبه على العموم وجب ان يكون معضودا من اكثر من جهةٍ يصحّ بها التّعميم، أمّا أن تكون الحجارة حجارةً واحدةً لاثانية لها، فذاك ممّا يسقط به الاحتجاج ويفسد القياس..

وبديهيٌّ كلَّ البداهة أنَّ الكَتَبَة تتباين ملامح خطوطهم الاّ اذا كانوا من ممارسي صناعة الخط الذي يمارسونه وفق مدارس تقرّر حدوده وأبعاده واشكاله وتزييناته، فهؤلاء تدرس خطوطهم وكأنها كتبت بقلم كاتب واحد... اما الخطوط اليدوية العادية فلا يتخذ انموذج منها واحد اساسا تقاس عليه نماذج اخرى لخطوط قوم آخرين...

فلنترك هذه الاحجار المجلوبة من قبور دوارس اذا ابحنا الاستئناس بها في بعض الأحيان فانّا لا نراها تستحقّ ان يُبْنى عليها حكمٌ من الأحكام لاسيّما اذا نوقض به الواقع..

والواقع هو ان الاسلام وجد تركة عظيمة من قواعد الخط العربي قد تركها الاقدمون فمضى يكتب بها كتاب الله العظيم...

وكتب بها كذلك ما كتب من عقود وعهود وكتب بها الخلفاء تواقيعهم واوامرهم ونواهيهم...

فالأمر هنا ذو مساحةٍ جدِّ عريضة لا تكون منها في شيء حجارةٌ وُجدت في قبرٍ قديم ليس فيها سوى أحرفٍ معدودات لا دلالة فيها على واقع أمّةٍ ذات شخصيَّة ونسب عريق تمتدّ جذوره الى أعماق التاريخ..

وعلى هذا نرانا نُصِرُّ غاية الإصرار على أنَّ **الإملاء العربيّ الذي وجده** الاسلام كائناً بين أصابع المسلمين **بالخطّ من كتبة العرب** يومذاك انما هو واقع هذه الامة، وهو واقع في غاية **السعة وبعد الابعاد**، وانـه واقع اجتاز مرحلة البدائية والسذاجة اي انه واقع **مكتمل عاد عليه** حرص الامة بعد الاسلام بالاكتمال التام... ولا يعني هذا ان لا يكون لِأحَـدٍ فيه رأيٌ بتـزيينٍ أو تحسين أو تطوير من حيث هو خطٌّ تكتب به حاجات الناس وسائر مطالبهم على مدى العصور...

أمّـا الخطّ القـرآنيّ فيجب أن يبقى على نَمَـطه القـرآني عنـد كتابة المصاحف فان كتبت كلماته في غير المصاحف عند الاستشهاد فلا حرج في كتابتها وفق الخطوط المتطورة المتعارف عليها...

وهذا ما وجدنا العمل جارياً وَفْقَهُ وعلى هداه... فلقد كان من تطوّر الخط العربي انهم كتبوا «على» التي هي حرف جَرٍّ معروف بنقطتين أي «علي» وترى صورة ذلك على محراب جامع مرجان، «ان الصلوة كانت علي المؤمنين كتـابـا موقـوتا» وظلت كتب كثيرة تكتب مثل هذا الحرف منقوطا ثم عدلوا عن ذلك... على أنّ نَقْطَ «على» ليس أصلاً في الخط القـرآني القـديم لانعدام النقط فيه اول كتابته... وسنأتي على الخطّ القرآني في الحلقات الآتية لندرس منحاه الاملائي الذي هو ذات منحاه في الخط العربي القديم؟

***

ان المصحف الشـريف يستـوعب آلاف الكلمات **التي استوفتها فيه** ثلاث وعشرون سنة من يوم نزل حتى اختتمه الله **بالآية الكريمة «اليوم** أكملت لكم دينكم وأتْمَمْتُ عليكم نعمتي **ورَضِيتُ لكم الإسلام ديناً»**.

وقد نزل من سوره وآياته ما نزل في مكة وما نزل في المدينة قبل الهجرة وبعدها. . . وفي تضاعيف هذا الكتاب العظيم مطالب كثيرة تنتمي الى سائر حاجات الناس، والى متفق ظروفهم ومختلفها مما يدل دلالة واضحة على ان طريقته الاملائية ـ اي رسم القلم في كتاباته وتدوينه ـ كانت طريقة ذاتَ اقتدارٍ شامل واستيعاب تامٍّ لخطِّ الكلم القرآنيّ بسائر هيئاته واشتقاقات ألفاظه وصور حروفه في متعدّد حالاتها الإعرابيّة والبنائيّة ممّا يظهر به أنّ قواعد الخطّ العربي ـ الذي كان مُتداولاً أيّام الجاهليّة أي قبلَ الاسلام ـ كانت مكتملةً بحيث أمكن ان يُعَبَّر بها كتابةً بمنتهى اليسر والسهولة عن جميع الاحتمالات الكتابية المتوقعة في كتاب عظيم تم نزوله في ثلاث وعشرين سنة فوق أنّه كتابُ شريعةٍ فُصِّلَتْ فيها الأحكام وشُرِّعت ادق تشريع، وعرضت سير الاقدمين، ودونت الوقائع المعاصرة، وثبتت المصطلحات الجديدة، وقننت قوانين التعامل الواسعة الابعاد بين الناس. . . افلا يدل ذلك على عظم سلطان الخط الجاهلي في مجال التوثيق والتدوين؟

انّ رسم القلم القرآنيّ لم يكن من صنع الكتّاب الذين دانوا دينَ الاسلام ولا كان قد نزل من السماء بنزول آيات القرآن انما كان من صنع اجيال سبقت ظهور الاسلام بأدهار داهرة بعيدة الايغال في التأريخ. .

فلمّا جاء الاسلام ووجد للقلم العربيّ رسماً يرسم به الكُتّاب ما يريدون ان يكتبوه، كتب به قرآنه العظيم ولم يعرض للخط العربي من تطور املائي يخرج على دائرة ماعرفه الكتبة العربُ أيّامذاك من أصولٍ وقواعد. . . لأنَّ كتابة القرآن كان مراداً بها أن تقرأ من قبل الذين يقرأون، ولا مجالَ لتحوير اسلوب العرب الكتابي وتحويل مساره الى هيئة غير الهيئة المألوفة لديهم

دون ضرورة تجرّ الى ذلك. وفي إجراء شيءٍ **من التّحويل على الخطّ** العربي ما يقف دون ايصاله الى الناس اعلاميا. **فالخط القرآني اذن هو** خطّ العرب مدى آلاف السّنين، ولابدّ أن نذكر **هذه السّنين موصوفةً** بالآلاف لأنّ خطّاً تكتمل قواعده على وجهٍ تامّ دقيقٍ **لا يتهيأ لأيّة امة من** الأمم الاّ بمرور الزّمن الطّويل جدّا.

لذا ما نرى احدا يملك ان يقول ان الخط العربي - اي **قواعد** رسم قلمهم - تمت هندسته في سنوات او إنّه من وَضْعِ الذين أسلموا..

واني لأتعجّب لمن يعثر على حجارة فيها سطر او بعض سطر او اكثر من سطر يجدها في مغارة من المغارات او عند سفح تل من سفوح التلال فيتخذها اصلا في حكاية تدوين الحرف العربيّ وتقعيد قواعده الاملائية.

وهذه آلاف الكلمات والحروف اجتمعت في خط المصحف وفق قواعد كُلِّيَّةٍ، ما خرج عليها خَرَجَ منتظماً في نظام يستقلّ به، له تعليلاته ومسوّغاته المعروفة.. أفلا يجب ان يهدي هذا كلّه الى الواقع الاملائي لدى العرب قبل الاسلام فيفهم منه ان العرب امتلكت من قديم الزمان خطّاً رشيداً في تخطيطه الهندسيّ وتصويره الفنّيّ والجماليّ..

لقد كان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد أمر بتأليف لجنة تضمّ عدداً من الكتبة تولّوا تدوين المصاحف التي أُرسلت الى الأمصار فأنجزوا عملهم في خمس سنوات فكانت هذه المصاحف شيئا واحدا لوحظت في كتاباتها القواعد الكتابية المصطلح عليها بحكم تراثيتها وانتقالها الى الجيل الاسلامي الاول من اجيال عربية قديمة×.

× قال الدكتور غانم قدوري الحمد في «رسم المصحف» مانصّه: «الشواهد تدل على انّ الصّحابة كتبوا القرآن بكتابتهم التي كانوا يستخدمونها في كافة أمور حياتهم»..

وما عمله كتبة هذه المصاحف انما كان ظاهر الالتزام بتصوير الصوت المنـطوق تصويراً سليماً بالحرف الذي يحقّق هذه السّلامة، فهم حين كتبـوا «وصـالـح المؤمنين» انّما عَنَوْا «وصالحوا المؤمنين» أي المؤمنون الصالحون، ولكنهم كانوا يحذرون ان يقع المد على الحاء التي ارتبط بها واو الجمع فيقع بذلك لحن في الصوت العربي الذي يتخلف فيه المد في هذه الحـالة، فحذفوا واو الجمع وأبقوا اللفظ وكأنَّه بهيئة الإفراد حمايةً للصّوت الذي يجب أنْ يَتِمَّ به النّطق عند التّلاوة في صلاةٍ وفي غير صلاة. . على ان يكون الصّوت الأدائي المنطوق هو الأصل في ذلك ان وقع مايدعو الى تجاوزه من قواعد الاعراب التي تمضي في سبيلها، بحيث تعرب الألفاظ على وجهها الاعرابي دون إخضاع الخطّ الى ذلك. . ومن هذا قوله تعالى: «عالِمُ الغيبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعالِ» فأن «المتعال» تقرأ عند الوقف باسكان اللام، وعند الدَّرج بكسرها. . دون إثبات ياء هناك اي لايقال المتعالي، . لا في الوقف ولا في الدرّج على أنّ الاعراب يكون بايراد ذكر الياء للدّلالة على أن اللفظ منقوص تقدّر عليه ضمَّة الاعراب من حيث ان المُتعال صفة لمرفوع. . فلو كتبت الكلمة بياء لجرى الوقف عليها بها وهو غير مراد. . ومثل ذلك «إن ترن أنا أقلَّ منكَ مالاً وولداً». . فانَّ «ترَنِ» لاتثبت معها هاء ضمير المتكلم «ترني». .

وكتبوا «أجيب دعوة الداع اذا دعان» بلا ياء في «الداع» وفي «دَعانْ» لأنَّ صوتهما المنطوق به عند التلاوة هو ان يكون بلا ياء فيهما فلا يقال «الداعي» ولا يقال «دعاني» لا وقفاً ولا وصلا. . . وهذا ما اشار اليه بعض المصنفين اذ قالـوا ان كتبـة القـرآن الكريم وافقوا في كتابته بين الرموز والاصوات. والى هذا أردُّ كتابتهم الهمزةَ المضمومة على واوٍ بعدها ألف

فقد فعلوا ذلك إمعاناً في تحقيق صوت الضَمّ فيها. . . ومن ذلك «إنّ هذا لهو البلاؤا المبين». . فانَّ وجود الواو هنا وجود للضمّة على الهمزة. . اما اثبات الألف فانه يشير الى أنَّ نطق الهمزة انّما يكون بالسّكون عند الوقوف عليها في البلاء فكأنَّها بذلك صار محلّها على الألف السّاكنة. .

ومثـل ذلك في الافعال «تَالله تَفْتَؤا تَذْكُرُ يوسفـ» ومثله «ويدرؤا عنها العذاب» و«قل ما يعبؤا بكم ربيَ» و«أوَمَنْ يُنَشَّؤا في الحِلْيَة» و«هي عصاي آتوكؤا عليها» فهم عند الوقوف على هذه الكلمات يقفون بالسّكون. .

وجاءت الواو مقرونة بالالف في مثل «الذين يأكلون الربوا» فأنها تلفظ «الربا» اما الواو فقد جيء بها لبيان جذرَ اللفظ الذي هو واوي، ولكن حين وجد في اضعاف الكلام القرآني ما يدل على واوية الجذر كتبت كلمة الربا بألفٍ لا واو مَعها وذلك في قوله تعالى «وما آتيتم مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا في أموال الناس فلا يربوا عند الله».

فكلمة الرّبا هنا لم تكتب بواو استغناءاً بواو الفعل «يربو» التي وردت في ذات النّصّ. . ونُـزعت الالف من ألفـاظٍ منها «صالح» التي كتبت «صلح» ولا يقَـع في ذلك التباسٌ فانّ العرب سمَّوا «صالحا» وعلى أيّ صورة كُتِبَ عرفوا نطقه. . . والفرق ظاهر بَيْنَ: «ومن عمل صلحا» التي تقـرأ «صـالحـاً» وبين «فلا جناح عليهما ان يُصْلحا بينهما صُلْحا» فان «صلحا» هذه هي الصلح وليس اسم الفاعل من الصلاح.

وعلى ذلك اطّردت كتابة الأسماء مثل عمران التي كتبت في المصحف «عمـرن»، وسليمان التي كتبت بهيئة «سليمن»، واسماعيل التي كتبت بهيئة «اسمعيل» ومثلها في الخطّ القرآني «اسحق» - أي إسحاق - وهروت ومروت التي تكتب في غير الخطّ القرآني على هيئة هاروت وماروت ومثل

ذلك «هرون» التي يكتبها بعض الكتبة منّا أحياناً بهيئة «هارون». . ذلك لأنَّ هذه الألفاظ أسماء أعلام محفوظة لاتفقد ضوابط نطقها كيفما كتبت، فالرمز الكتابي هنا صريح في دلالته على مايراد نطقه. .

***

وحـذفت الالف من «اثـار» فكتبت «ءاثر» وهذا لم يختلف فيه الرمز والصوت، وذلك من جراء ان الكلمة بدئت بهمزة تلتها ألفٌ فأغنى ذلك عن اعادة كتابة الالف بعد الثاء. فعلم به ان الكلمة واردة بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد ..

وكتبت «مبشرات» في المصحف من غير الف بعد الراء. والسبب في هذا أنَّ الكلمة لو كانت مفردة لكتبت بتاء مربوطة فاذ كتبت بتاء طويلة فهي اذن جمع لذا استغنت عن الألف فكتبت مُبَشِّرت ومثل ذلك «الثَّمرات» فانَّها في خطِّ المصحف «ثمرت» وقد استدللنا بالتاء المبسوطة على الجمع، فلما جاءت الكلمة مفردةً كُتبت بتاءٍ مربوطة «كلَّما رُزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً. . »

وزَعَمَ مؤلّف «الملخَّص المفيد في علم التَّجويد» ـ ص ١٧٦ الطَّبعة الثّانية ـ أنَّ كلمة «ثمرت» بهيئتها هذه وقعت في القرآن في موضع واحد بالتّاء وما عداه فبالافراد اتّفاقاً!! وبالهاء رَسْماً!! والموضع الواحد الذي أشار اليه هو الآية (٤٧) من سورة فُصِّلَتْ: «اليه يُرَدُّ عِلْمُ السّاعَةِ وما تَخْرُجُ من ثمرت من أكمامها». . والرَّجل واهمٌ في هذا التحديد، فانَّها وردت بالتّاء وبالجَمْع ستَّ عشرة مرَّةً أربع منها في سورة البقرة (٢٢ و٢٦ و١٥٥ و٢٦٦) ومرّتين في الأعراف (٥٧ و١٣٠) وواحدة في الرَّعد (الآية الثالثة) ومرَّتين في ابراهيم (٣٢ و٣٧) وثلاثاً في النَّحْل (١١ و٦٧ و٦٩) وواحدة في كل من القَصَص

(٥٧) وفاطر (٢٧) وفُصِّلَتْ (٤٧) ومحمّد **(الآية الخامسة عشرة)**. **وكلّها** وفق القاعدة التي أثبتناها..

وجاءت في كلمات القران كلمات بالتاء الطويلة مثل **«شجرت الزَّقّوم»** إشعاراً بعظم أذى هذه الشَّجرة لآكلها... ومثل ذلك **«ومَعْصِيَتِ الرَّسول»** بالتّاء الطّويلة استعظاماً لهذه المعصية... وكتبوا «وجَنَّتُ نعيم» إبرازاً لصورة الجنّة وسعَةِ نعمتها.. وكتبوا: «وقالت امرأتُ فرعونَ قُرَّتُ عَيْنٍ لي وَلَكَ...» بالتّاء الطّويلة لعظم التّلهّف على ما أُريد الحرص عليه والحفول به.. وذلك في كلمة قُرّة عينٍ..

وكلّ ما جاء في خطّ المصحف من ألفاظ المرأة اذا كان مضافاً جاء مكتوباً بتاءٍ مبسوطة، مثل «امرأتُ العزيزِ وإمرأتَ نوح وامرأت لوط».. وذاك لأهمّيَّة دورها في هذه المواقع، فان أفردت كلمة المرأة كتبت بتاء مربوطة مثل: «وَجَدْتُ امرأةً تملكهم» ومثل «وامرأةً مؤمنةً» و«إِنْ امرأةٌ خافَتْ من بَعْلها نشوزاً..»

ومثل ذلك مما كُتِبَ من ألفاظ الرَّحمة والنّعمة والسُّنَّة واللعنة بالتّاء الطّويلة تجسيماً لمعانيها ولفتاً للأنظار اليها... ومن ذلك «فانظر الى آثار رحمت الله» و «يا أيُّها النّاس اذكروا نعمت الله عليكم» و«فلن تجد لِسُنَّتِ الله تبديلا» و«فنجعلْ لعنتَ الله على الكاذبين».

وعرفت العرب في لغتها التحكم في الالفاظ لتفعل فعلها في النفوس فتجعل الشُّؤْمَ يُمْناً واليأس رجاءاً.. ومن ذلك تسميتهم الصحراء المهلكة «مفازة» تفاؤُلاً بالفوز، وتسميتهم الرّاحِلة «قافلةً» من التّفاؤل بعودة المسافرين فيها الى أهليهم... وسمّوا اللديغ بالسّليم ايحاءاً له بأنّه غير هالك وانّه ناج..

ولقـد تحـاشى كتبـةُ العرب الأقدمون أن يقع في ألفاظهم المكتوبة ماتختلط به الألفاظ فاتّخذوا لذلك من أسباب التحوُّط ما يمنع وقوع ماتحاشوه. .

ومن ذلك انهم كتبوا «اللاّت» على هيئتها أي بتاءٍ طويلةٍ مبسوطة. . . وكتبوا: «الله» بهذه الهيئة لئلاّ يُلْفَظ أحد اللفظين على غير وجهه اذ كان في العرب من ينطق التاء الطويلة هاءا.

امّا ما يراه أناسٌ من أنَّ الكتابة العربيّة كانت (لا تخضع لقاعدةٍ وضعها واضـع، وانهـا كانت تتطوّر تطوّراً يستجيب لتطوّر اللغة في الاستعمال الحيّ فتستجيب للنّطق مرَّةً وتحتفظ بالصّور القديمة لهجاء الكلمات مرّة اخرى وفقاً لما جرت عليه أيدي الكتّاب في ذلك. .) فانَّ ما يراه هؤلاء القالة قد يكون كائناً قبل نضج الخطّ العربيّ واستقرار طريقته. .

على أنّا لا ننفي أن تكون هناك وقائع وأحداث أدَّتْ أو جرَّت الى إجراء تحويرات املائيَّة عبر العصور التي تلت فترة كتابة المصحف العثماني. .

فنحن اليوم نرجّـح ان تكتب الهمزات المفتوحة في نهايات الألفاظ مقرونةً بالالف عند وقوفنا عليها للدَّلالة على حالة النَّصب فيها وهي الالف المسمّاة بألف الاطلاق. . وذاك لما نراه من استشراء خطأ النّاس في نطق هذا الحرف. . . ومن بعض هذه الألفاظ بناء وضياء في قولنا: بنيت بناءاً، وشاهدت ضياءاً. . وظلّت مئات الكتب المعتبرة والمصادر اللغويّة القديمة تكتب كلمة «الهيئة» بهمزة على كرسي وراح قوم في ايامنا يكتبونها على الف ـ الهيأة ـ وربمـا شاعت صورتهـا الجديدة ـ لاسمح الله ـ فباتت أنموذجاً لما جرى عليه التّغيير في عصرٍ بعينه. .

ومن النـاس من يكتب جمع المذكر السالم المحذوف النون بسبب

الاضافة مُتْبَعاً بألفٍ تمييزاً له عن الألفاظ الملحقة بهذا الجمع ممّا لاتمتلك شروطه، وهو مانرجّحه نحن ونحرص على إثبات الألف فيه. .

وكان آخرون يحذفون هذه الألف فاذا تَمَّت الغَلَبَةُ لأحد الفريقين صار ذلك منسوباً الى فعل الزَّمن في التَّحكم الإملائي في الألفاظ. . . والكَتَبَةُ المصريّون قاطبةً يكتبون الشُّؤون بهمزةٍ على كرسيٍّ أي بهيئة «الشّئون» لم يصرفهم عن ذلك ناقدٌ مهما كان مبلغه من العلم. وان كان الدكتور علي جواد الطاهر الذي قرع لهم في هذا أكثر من جرس إنذار. .

وعلى أيّ حالٍ فانَّ الشَّكل الهندسيّ للحرف الذي يرد مكتوباً به اللفظ يُعتمد في كتابته وقراءته على ما استقرَّ في الذّهن من معناه وغايته. .

فاذا اوردنا اسم الاشارة للقريب فقلنا (هذا) فانّا لم نثبت الألف بعد الهاء رغم أنّا نطقناه بلفظ «هاذا»، لأنَّ ذلك الرَّمز الخطّي عُنِيَ المقصود منه عند كتابته التي باتت لها صورة مرتسمة في الذّهن عند ارادة كتابتها.

وما كان على هذه الجديلة فليس من الضروري ان تلحق الهاء فيه بالف تكتب بعدها. .

وسائر ماورد في القرآن الكريم من مثل هذه الألفاظ نُحِّيَ حرفُ الألف عنها في الكتابة لأنَّها شيءٌ زائدٌ على الرَّمز وما تزال النّاس حتى يوم النّاس هذا لا تكتب: «هذا» بألف بعد الهاء، ارتياحاً الى صورتها المكتوبة التي يندر أن يقع قارئها في الخطأ عند قراءتها. . . بل إنَّها لو كتبت على هيئةِ (هاذا) لاستبشعها كلُّ ذي ذوقٍ سليم. .

ولا تزال الناس ـ كذلك ـ تكتب البَسْمَلَة بهيئتها القديمة «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» فانْ حَدَثَ في عصرٍ ما أنْ كتبوا ذلك بهيئة «باسم اللاه الرحمان الرحيم» جُعِلَ ذلك من السّمات الاملائيَّة لاسمه تعالى لذلك

العصر على بشاعة هذه السِّمَة وتقزّز الذوق الفنّيّ منها.

وكتبوا بالواو كلمات نكتبها اليوم بالالف كالصلاة والزكاة والحياة... وانما كتبوها بالواو للتنبيه على كونها تجمع بها اذا جمعت فيقال صَلَوات وزكوات وحيوات... وليس لأن الواو فيها علامة تفخيم يفخم بها ماقبلها من حرف فانهم لم يفخّموا الكاف والياء في الزَّكاة والحياة ان كان فيهم من فَخَّمَ اللام في الصَّلاة تأثّراً باستعلائيَّة الصّاد...

وكان دور «الواو» في بعض الكلمات دور حركة الضَّمَّة التي لم يكن لها وجودٌ قديماً، وبذلك كتبوا «سَأوريكم دار الفاسقين» بواو بعد الهمزة. ونحن نكتبها بالخط المعاصر «سأريكم»... ومثل ذلك «وأولات الأحمال» و«أولو العلم» و«أولئك» وهذا هو ذات الخط المعاصر لم يتغيَّر فيه من منهج الخطّ القديم شيء... وذاك لاعتماد الدَّلالة الرَّمزيَّة فيه على المُراد وكانت الدَّلالة الرَّمزية لدى العرب أصلاً في فَهْمِ ألفاظهم المكتوبة فهي أشبه بتصريف الأفعال إذ يميّزون بين قال يقول من القول وبين قال يَقيل من القيلولة.. ورغم دقّة الفرق بين الضّاد والظّاء فانّهم كانوا لا يشقّ عليهم من ذلك شيء لا في سماع ولا في تدوين.. اذ علمنا أنَّ الضّاد يخرج عند نطقه جزء من أَسَلَة اللسان لأنّه الحرف الوحيد المتّصف بالاستطاله.. أما الظّاء فانَّ نطقها يكون أشبه بنطق الذّال.. كما أن الضّاد من حروف الاخفاء وليست الظاء كذلك..

فلقد كانت الأُذن العربيّة قويّة الإصغاء والالتقاط.. قال الأستاذ مجدي العُقَيْلي في كتابه «السَّماع عند العرب» ما نَصُّه: «انّ الأُذن العربيَّة حباها الله حسّاسيّة دقيقةً يمكنها ان تميز بها فوارق اللفظ الأبْجديّ العربي في خفَّته وثقله مهما كان دقيقا»..

وشِعْرُ العرب يدلّ على الرّغبة التّامّة في ضبط الأقيسة والموازين. . .
وهذا الى غيره من الشّواهد يدعونا الى الاعتقاد **بأنّ العرب لابُدّ أنْ تكون** عرفت أهَمِّيَّة تقعيد القواعد في خطّها المكتوب **بفعل الفطرة والتّجربة وانْ** غابت عنا الأصوّل الدّالّة على ذلك من نحو **المستمسكات الخَطِّيَّة** المحتوية على قدرٍ من السّطور كبير. .

وأجِدُني لابُدَّ أن أستأنس بالخطّ الصّينيّ الذي تكتب **مقاطعه وفي** بعض أنحائها اشاراتٌ تشير الى شيءٍ من معانيها واشارات اخرى تشير الى طبيعة نطقها صوتيا. .

على أنَّ في العربيَّة ماهو مثل ذلك تماماً عند اجتماع حروف الى حروف بحيث تكون هناك دلالاتٌ على معانٍ متقاربة، لذا فانَّ قياس لغة قديمة الى أخرى مثلها هو قياس في علم الأصوات طبيعيّ لااشتطاط فيه وهذا من فعل الفطرة والتّجربة كذلك فكأنَّ العرب وجدوا ما وَجَدَه الصّينيوّن في كتاباتهم من إقحام هذه الدَّلالات في صلب ألفاظهم. .

ذكرت آنفاً ان الألف في «أتوكَّؤا» كتبت للوقوف على اللفظ بالهمزة الساكنة ولكنهم كتبوا «تبوّءو» - بواو الجمع للماضي «تبوّأ» - بلا ألف بعد الواو، لأنَّ اللفظ هنا لايتهيّأ في نطقه الوقوف على الهمزة فهو فعل مبنيّ على الضّمّ أبدا، وذاك تامّ نصّ الآية القرآنيَّة «والذين تَبَوَّءو الدّار والايمن «الايمان» من قبلهم يحبّون من هاجر اليهم. . . »

ومثل ذلك النَّصّ القرآني «وباءو بغضبٍ من الله» فانّ الفعل هنا لم يلحق بألف بعد الواو لأنَّه لامكانَ لايراد الهمزة ساكنة، لذا لم تثبت الألف بعد الفعل وظلَّ الفعل لاينطق به الآّ مبنيّاً على الضّمّ. فلو وُقفَ عليه بالسُّكون لانقلبت صيغة الجمع فيه الى الافراد. .

***

انّ النُّطق وُجدَ في ألسنة النّاس قبل الكتابة والقراءة، لذلك كان من الغريزة أن تسبق الألسنة الى الصّحَّة فيه فتتّقي اللحن، لاسيّما لدى من أَلِفَ لغةً ينطق بها منذ عهد الصّغر. . فما كتبوه لأنفسهم ولغيرهم لا يعجز قارئه ـ ان كان منهم ـ أنْ يقرأه على وجهه. . . ولذا فانَّ أدنى اشارة أو رمزٍ كان كافيا ان يهدي القارىء الى القراءة السليمة وهذا شأن سائر لغات العالم تفهم مقاصد كلماتهم المكتوبة من طريق الاعتماد على رموز لديهم تثبت بها وقائع ألفاظهم ومقولاتهم المكتوبة فلا يكون من حق احد ان يعيبهم على خطٍّ خطّوه أو رمزٍ رمزوا به. .

انَّ الخطّ الحديث هو خَطٌّ دعت اليه حاجاتٌ كتابية كثيرة لاسيّما لدى امم غير عربية النّجار تعلّمته من العرب ووجدت أنَّها في حاجة الى استيضاحاتٍ كثيرة وموضحات فصار الخطّ العربي يتميَّز بمزايا ظاهرة خَفَّ بها على كتّابه وخطّاطيه وسائر قرائه ما كان يشقّ على نظرائهم. .

ولكنّ هذا التطوّر لا يخوّل أحداً أن ينسب الى الخطّ القديم أنّه خطّ خارج على القاعدة فليست القاعدة التي نجري عليها في الاملاء اليوم يصح منطقيّاً وتأريخيّاً أن نحتكم اليها في شأن الخطّ القديم فنزعم الخطأ على أمرٍ سابقٍ بمقتضى القياس على أمرٍ لاحقٍ. . فانَّ للخطّ القديم خصوصياته وقواعده كأية لغة من لغات الامم يقيمها اهلها على خصوصيّاتٍ لسانيّةٍ ومنطقيّةٍ، وليست العربيّة بدعاً من ذلك. .

على أنّا لو شئنا تطبيق قواعد الخطّ القديم في أيامنا هذه لوجدنا ذلك مستجيباً لسائر حاجاتنا دون ما يجرّ الى الاعتراض، غير أنّا آثرنا قبول ماجرى على القلم العربي من تطوّر في شتّى كتاباتنا باستثناء ما يكتب من

قرآنٍ بين دَفَّتيه. وانّما فعلنا ذاك في كتاباتنا هذه **لنخفّف عن أقلامنا** ماحسبناه يثقل عليها من أنماط الخطّ القديم... وكان **ابن قتيبة يرى ان** يُلزَم النّاسُ بخطّ المصحف..

ولم نجدْ في الخطّ العربيّ مشاكلَ خَطّيَّةً وصعوباتٍ **إملائيّة قلميّةً** تستوجب الحَيْرةَ وتدعو الى المعالجة كالذي وقع للقلم الصّينيّ **مثلاً**، اِذْ صار علماء القوم يقلّلون من عدد الخطوط فيه من منكسرةٍ ومستقيمة.. وكالذي وقع للخطّ الانكليزي في أسلوب الكتابة الأمريكيّة اذ صاروا يحذفون حروفاً لا مكانَ لها على اللسان عند نطق الألفاظ... وسائرُ لغات الناس عليها مثل هذه الملاحظات..

انّ اللغة العربيّة في خطها القديم اقل تعرُّضاً للنّقد المنطقي البريء غير المغرض بل ان النقد المغرض مهما اشتدّ الغرض فيه لايصل الى اتهام العربية بالاختلال في طريقة كتابة الحروف واسلوب الاملاء ألّا في ألفاظٍ معدودات لم تتَّضح لباحثينا دقائق أسرارها بعد.

ان الرموز الكتابية التي نسميها الحروف تدل على المقصود اثباته من حاجات الناس الكلامية والتعبيرية بادنى اشارة ولذلك امسكوا عن اثبات حروف في كلمة اكتفاءا بما يكون قبلها مما يدل عليها.. ككتابتهم... «لإيلافِ قريشٍ إلافِهِمْ رحلةَ الشّتاء والصّيف» بياءٍ في «لايلاف» وبلاياءٍ في «اِلافهم» لانَّ الكلمة الاولى دلّت على المراد فأغنى ذلك عن اعادة كتابة الياء في «الافهم» التي نكتبها خارج اطار القرآن بهيئة «ايلافهم».

وممّا يعدّ من نحو هذا في اعتماد القرائن الخطّيّة، اعتماد القرائن المنطقيّة أيضاً فانَّ النَّصّ القرآني «تلك آيات الكتب المبين» تدلُّ كتابتهُ على أنَّه كتاب واحدٌ وليس أكثرَ من كتابٍ وذلك بوجودِ صفةِ «المُبين» بعده

فما يتوهَّم أحدُ أن يظنَّ الكتابَ كُتُباً بمجرد أن لا تكون بعد التاء ألف. .

اما في مخاطبة ذوي الدّيانات القديمة الذين أنزل الله عليهم كتبه فانّهم عرفوا باصطلاح أهل الكتاب لا أهل الكتب فالأمر خرج بهذا عن الالتباس فما يقال فيهم أهلُ الكُتُب. . .

أمّا النّصّ القرآنيّ. . . «كلٌّ آمَنَ بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُله. .» فانَّ جمعيّة هذه المفردات من ملائكة ورسل وبينهما الكتب لا توهم قارئاً ان يقرأ الكتب بلفظ الإفراد. . . ومثل ذلك النَّصُّ القرآنيُّ: «ذلك أدْنى أنْ يأتوا بالشَّهادةِ على وَجْهِها» فانّ «بالشَّهادة» كتبت في المصحف على هيئةِ «بـالشَّهٰدَةِ» وهي وإنْ كتبت على هذه الهيئة فليست تقرأ الآ «بالشَّهادة» بمقتضى أنَّ القرائن اللفظيّة والمعنويَّة تصحّح قراءة القارىء، وقد قيل في بعض الـلطائف اِنَّ رجـلاً قرأ. . . «فخَـرَّ عليهم السَّقْفُ من تحتهم» فَصَرخت فيه زوجته قائلة ويحك انَّما يكون السَّقف فوق النّاس فيخرّ عليهم. . .

ومما أُخذ به كتبةُ العربيّة القدامى من طرائقَ اِملائيَّةٍ مضوا عليها فكانت في حكم ماهو مقيس عندهم في سائر كتاباتهم وخطوطهم انهم اعتمدوا التَّزيين في الخطّ وهي فلسفة لاحَظَها المتأخّرون فصاروا يزوّقون الحروف ويملأون فراغات الألفاظ باشارات مخترعة كان القصد منها رونقة الحرف المكتوب ليَبْدُوَ جميلاً وبارعاً يسُرُّ ناظريه. . .

وهذا التزيين بالذات يتكىء على فلسفة عرفناها في لغات اخرى هي فلسفة التناظر والتكامل في رؤية المرئيات الجميلة التي آمنت بها اللغة الصّينية القديمة اذ لا يكتبون كلمة الاّ اذا كانت متناظرة الأطراف بحيث لا يكون فيها فراغٌ يختلّ به شكل التّربيع وإذْ راح الصّينيّون المتأخّرون

يحذفون من بعض كلماتهم الزَّوائد الخطّيّة تخفيفاً على الجيل الجديد لم يَبْقَ لفلسفة التَّناظر من شأن في خطّهم اليوم الاّ بمقدارٍ لم يعد هو الاصل في خطّهم...

والتناظر قانون يعرفه المصممون الذين يشتغلون في البناء والازياء وسائر المطالب التي تعتمد هندسة التناظر...

وبهذا افسر كتابة الواو في ألفاظٍ قرآنيَّة مثل «فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا» ومثل «وما كنت ترجوا ان يلقى اليك الكتاب اِلاّ رحمةً من ربّك».. أي أن ترد بعد الواو ألف مكتوبة غير ملفوظة..

وكذلك مثل «والله يدعوا الى دار السلام» بألف بعد واو «يدعو» ومثل «يوم ندعوا كُلّ أُناسٍ بامامهم».. فانَّ لهذه الالف في عالم الرُّؤية الجماليّة مذاقاً رائعاً كل الروعة..

ومثل الذي أسلفنا الكلامَ عليه في ألفاتِ التَّزيين الألفُ التي جاءت في النّصّ القرآني «وما آتيتمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا في أموال النّاس فلايَرْبُوا عندَ الله».. فانها في «ليربوا».. وفي «فلا يربوا» للتزيين وما اليه..

وكتبوا «اولوا» أي ذوو ـ بألفٍ فكان ذلك للتزيين كحال الأخريات من النَّظائر اللفظيّة وفي هذا كذلك تمييز للكلمة عن «أَوَلَوْ» المؤلفة من همزة الاستفهام وواو العطف والحرف الذي هو «لو» على انهم لم يلحقوا « (لو) هذه بالف لحرفيتها وصغر حجمها وانعدام الحاجة فيها لتزيين وما اليه..

***

انّ الكتبة الذين تولوا كتابة المصاحف كانوا ذوي دراية بالخط العربي واصوله، وما عسى ان يكون هناك من طرائقه ان وجدت.. كما انهم كانوا من حَفَظَة التّنزيل ومتقني أدائه وذوي التّقوى ومخافة الله.. ويجعلنا هذا

مطمئنين الى ان كتابة المصحف لم تتعرض للتسيّب والغفلة والجهل بماهيّة المُهمّة التي وُكِلَتْ اليهم، فانّها كانت مُهِمّة تبنّتها الدّولة وأقرَّها أهلُ الرّأي والحلّ والعقد فيهم. والقرآنُ يتلى آناء الليل واناء النهار بما لايجعل شيئاً من أمر كتابته قد وَقَعَ بعيداً عن الأمّة وأهل العلم فيها. . . وكان عثمان وهو خليفة المسلمين وأحَدَ حفّاظ القرآن يشرف بنفسه على التّدوين الذي جرى في عهده واستغرق خمسة اعوام وكان يفتي في ذلك بفتاواه وتوجيهاته اذ كان رضي الله عنه من العارفين بالقراءة والكتابة، وقد كان من حسن حظ المسلمين ان خلفاءهم الاولين كانوا يجيدون هذا الامر ويحسنون معرفته واداءه. .

والاعتماد على حفظ النص سبيل الى الاجادة في كتابته وتدوينه، فما يكونُ في مثل ذلك شيءٌ من تصحيفٍ ونحوه وكان الحفظُ هو الأصل الذي دان به المسلمون فكانوا يقرأون في الصّلاة من حِفْظِهم من غير الحاجة للنظر في صحيفة، وكذلك كانوا يتلون الآيات خارج الصلاة من حفظهم ان شاءوا ومن النظر في المصحف إن شاءوا. . . والشريعة الاسلامية حَثَّتْ أتباعها على حفظ القرآن وتلاوته بذات ألفاظه، ونَهَتْ عن نقلهِ بغير حروفه اي بمعانيه المجردة من نصها. . .

على انهم ألِفُوا من قَبْلُ احترامَ النّصوص الشّعريّة التي كانوا يستشهدونها او يُغنّونها فكانوا يحافظون على موازينها وقوافيها كلّ المحافظة فكان كتابُ الله اولى وأحقّ ان تنضبط نصوصه على ألسنتهم ماقرأوه في صلاة وفي غير صلاة. . . ثم ان الحافظة العربية كانت قوية متمكنة مما مكنها من حفظ الشعر العربي وروايته فما كان صعبا عليها حفظ القرآن واستظهاره بذات نصه. .

كما أنَّ طريقة نزول القرآن كانت مساعدة على الحفظ الحرفي ذلك لأن الآيات القرآنية كانت تنزل في احيان تتقارب وتتباعد وباحجام يسيرة بحيث استغرق امد نزول القرآن نحوا من ثلاث وعشرين سنة... وهي فترة لا يشق حفظ القرآن فيها رغم نزع الذكاء والفطنة من الاعتبار...

والمسلمون مكلفون ان يقرأوا القرآن في الصّلوات الخمس وغيرها، وهـذا ما يوجب التكـرار للمحفـوظ من الآي ويدعـو الى المـزيد من الاستظهار... والقرآن الكريم نفسه ينصّ على الأمر بقراءته... (وأُمِرْتُ ان اكون من المسلمين وان اتلوا القرآن)...

واذ كانت الآيات القرآنية تنزل احيانا بناءا على وقائع معروفة ومشهودة فقد كان هذا مساعدا على حفظ تلك الآيات حفظا لا يغيب من مفردات النّصّ فيها شيء... لأنَّ الوقائع المشهودة هي بالذات تؤدّي مهمة التذكير والعصمة من النّسيان.... ويتبيّن من النّظر في تاريخ الشّريعة أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يُرَجّح القراءَ والحفظة على غيرهم في كثير من الشؤون فلقد جعل احد الشبان اميرا على قوم لأنه كان اقرأهم...

والقـرآن جاء لتـوحيد اللغـات وازالـة الفـروق بين القبائل وتصحيح اللهجات الرديئة والضيقة التداول، ومن اجل ذلك كان الالتزام بحرفيته امراً مفروضاً، ، وكان من غير الممكن منطقياً السَّماح بالتّصرّف في ألفاظه لأن ذلك لو وقع لكان منافيا للغرض الذي غرض اليه. ووجدنا امر الحرص على ضبط الآي القـرآني اصلا في العقيدة فلقد حذّرت آيات كثيرة ان يحدث التصرف في ألفاظ القرآن وتبديلها، فكان ذلك داعياً للتنبّه الشديد الى اللفظة القرآنيّة وإجادة حفظها... وإذ إنَّ إعجاز القرآن يرتكز على التّعبير القرآنيّ الحرفي الذي تؤدّى به مهامّ بلاغيّة مقررة فلقد كان الإذنُ

بتغيير ألفاظه عند الرواية منافياً لطبيعة هذا الاعجاز لو وقع ذلك ..
ان بلاغة الاسلوب القرآني والجرس الذي امتازت به الايات الكريمة كان ممّا يشوّق الى حفظ القرآن والحرص على حرفية نصوصه وألفاظه . .

ولقد بلغ من حرص الشريعة على صيانة القرآن ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى ان يصلي الرجل وهو في حالة نعاس لئلا يلحق بالآيات المتلوة شيء من التصرف بسبب ذهول الفكر وفي الحديث «إذا قام احدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فَلْيَنَمْ» . . . كما كان من الاسباب التي ارتكز عليها تحريم الخمر ان المصلي لا يعلم ما يقول من ألفاظ القرآن . . .

ووجدنا من أجل الحثّ على تعليم القرآن أنّ النّبيّ سمح بأخذ الأُجرة على ذلك اذ قال صلى الله عليه وسلم (إنَّ أحقَّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله) وقال ايضا (خيركم من تعلَّم القرآن وعَلَّمَه) . . . ورأينا من فرط حرص الشريعة على الحفظ والتحذير من نسيان المحفوظ ماجاء في الحديث (من حفظ القرآن ثم نَسِيَهُ لقيَ الله وهو أجذم) وقال (عُرِضت عليَّ ذنوب أمتي فلم ار فيها ذنبا اعظم من سورة من القرآن أوتيها رجل ثم نسيها) . . .

ومما يستانس به لبيان هذا، ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى (واذا قُرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وهذا مما يساعد على الحفظ ويؤدّي مهمّة ظاهرة في تصحيح قراءة القارىء . . . وقد اباحت الشريعة للمصلّي وراءَ إمامهِ في الجهريّات اذا أخطأ إمامُه ان يصحّح تلاوته في الحال وعلى وجه الجهر في حين ان الصلاة لا يؤذن خلالها بكلام ومخاطبة . . .

ووجدنا التّوصيات القرآنيّة تحدّد طريقة التّلاوة (لاتُحَرِّكْ به لسانَكَ

لتَعْجـل به) ومثلهـا (لتقرأه على الناس على مُكْث) وكذلك قوله تعالى (ورتّـل القرآن ترتيلا). . وفي هذا ما يعين على الحفظ وضبط الكلم، والتحفيظ كذلك. . .

وفي دعوة الشّريعة الى استعمال النَّغَم في التّلاوة من دواعي التَّشويق للاصغاء اليها ماهو ظاهر كلّ الظّهور. .

وفي توزيع آي القرآن على سورٍ متفاوتةٍ في الطّول والقصر، وتسميتها بأسماء معلومة وتقطيع هذه السور الى آيات أمرٌ يساعد على حفظ القرآن واستظهاره بسهولة، لأن سبيل مراجعته والاهتداء الى مواقع آيهِ ظاهر الوضوح. .

يضـاف الى هذا بسـاطة الكلام القرآني وفصاحة ألفاظه ونقاوتها من الحوشى الغريب وهي كذلك واضحة المعاني كل اولئك كان من أسباب سهولة استظهاره لاسيّما حين نرى قارئه يتلذّذ في قراءته. . . ففي حديث ابن مسعود قوله (كنت اذا وقعتُ في آل حم ـ وتلفظ هذه حاميمْ ـ كنت اتأنق في تلاوتها. .)

لقـد نزل القـرآن الكريم بلغة قريش وهي لغة آلَ اليها كلام العرب وادبياتها قبل الاسلام بفترة طويلة وبهذا لم تكن لغته لغة مستغربة لديهم، وكان نزول القرآن بها وهو كتاب السَّماء قد أزال من بينهم بالمَرّة دواعي الغرور القبائلي فاستقام على لسانهم ماعسى ان يكون فيه ما يشقّ ان وُجِدَ. . .

ان القرآن احتوى على جماعة من السير والقصص المنسق بأسلوب موجـز خلا من ذكـر الارقـام وتـواريخ الايام والاعـوام وأسمـاء المـدن والاشخـاص فكـان ذلـك هيّن الحفظ والاستـظهـار وضبط الألفـاظ

والكلم . . . لقد كان كتبة القرآن على درايةٍ بهذه الأصول كلّها لِسَبْقِهِمْ في الاسلام، وبهذا وما اليه سلم الخطّ القرآني من أية شائبة تشوبه وقد قال الله تعالى (إنّا نحن نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنّا له لحافظون) وكأنّي بهذا النّصّ القرآني الخالد قد أصاب به الخطَّ القرآني فَضْلُ ذلك الحفظ وشَرَفُه . . وفوق كُلِّ ذي علم عليم . .

الشيخ جلال الحنفي

ثمن النسخة دينار واحد

دار الحرية للطباعة

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٨٩٩ لسنة ١٩٨٨

يطلب من المؤلف ـ جامع الخلفاء ـ شارع الخلفاء ـ بغداد

دار الثـــورة للصحافة والنشر - بغداد - العراق ساحة عقبة بن نافع
هاتف بدالة ذات عشرة خطوط - ٧١٩٦١٦١
تلكس ٢١٢٢١٥ - ثورة - عراق - ص . ب ٢٠٠٩
ATH - THAWRA DAILY ATH - THAWRA HOUSE FOR PRESS & PUBLISHING P . O . BOX 2009 , TELEX 212215 THAWRA IK / TEL . 7196161 , BAGHDAD . IRAQ

جريدة
يومية
سياسية

الرقم ١١/٧٩
التاريخ ٨٨/٢/٤

Our :
Date :

الى / الاستاذ الشيخ جلال الحنفي المحتـــــرم

م / موافقـــــــة

بناءً على الطلب المقدم من قبلكم والمؤرخ فـــــي ١٩٨٨/١/١ والمتضمن رغبتكم في طبع كراس لمجموعة الحلقات المنشورة فـــــي جريدة الثورة تحت عنوان ((كلام على الاملاء العربي)) .

نوافق على ذلك مع تمنياتنا بالنجاح والتوفيـــــق

حميـــد سعيد
رئيـــس مجلـــس الادارة
رئيـــس التحريـــر

دار الثورة للصحافة والنشر
الثــورة
جريدة يومية سياسية

نسخة منه الى :-
الاضبارة العامـــــة

نضال :

الشيخ جلال الحنفي

كلام على الإملاء العربيّ

أو

بحث مفصّل في رسم القلم القرآنيّ

م. سرمد حاتم شكر

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

ثمن النسخة دينار واحد

يطلب من المؤلف - جامع الخلفاء - شارع الخلفاء - بغداد

دار الحرية للطباعة